(الجناس التام)

أقمار تمّ تعالوا في منازلهم فالصب مدمعه صب لبعدهم

(المطابقة)

قد طابقوا صحبتي بالقسم حين نأوا ولو دنوا لشفوا ما بي من الألم

وقد عني بشرح هذه البديعية شرحًا وافيًا عبد الله باشا فكري، ومن معاصري الساعاتي كثيرون لهم بديعيات، وقد تأثر بهذا الاتجاه بعض الشعراء المسيحيين فنظموا بديعيات في مدح عيسى عليه السلام.

ولعل الشيخ طاهر الجزائري المتوفي سنة ١٣٤١ للهجرة هو آخر من عرف بتعاطي هذا الفن، فقد نظم قصيدة بديعية وضع لها شرحًا أطلق عليه اسم «**بديع التلخيص وتلخيص البديع**».

وأخيرًا تجدر الإشارة إلى أن الاشتغال بعلم البديع لم يقف عند حد الكتب التي صنّفت فيه وتميز الكثير منها بالأصالة والابتكار ولم يقف كذلك عند نظم البديعيات، هذا الاتجاه الذي ظهر في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ثم أخذ الشعراء يتبارون ويفتنون فيه على نحو ما رأينا.

أجل لم يقف الاشتغال بعلم البديع عند هذا الحد أو ذاك وإنما تجاوز ذلك أو انحط عن ذلك إلى نظم فنونه في متون شديدة الإيجاز والتعقيد والإبهام مثل متن الجوهر المكنون [١] في الثلاثة الفنون، ومتن ابن الشحنة الحنفي.

حقًّا قد يكون القصد من وراء هذه المنظومات التعليمية مساعدة الطالب على تذكر الفنون البديعية وحدودها وأقسامها عند الاقتضاء.

ولكن أية فائدة يجنيها الطالب من حفظ أسماء ومصطلحات لا علم له بمدلولها ولا يستطيع أن يستسيغها أو يتبينها إذا عرضت له في نص من النصوص الأدبية؟

وعلى سبيل المثال هل يفيد الطالب شيئًا غير اليأس من البلاغة والنفور منها عندما يقرأ الأبيات التالية التي أوردها صاحب متن الجوهر المكنون عند كلامه عن المحسنات البديعية المعنوية:

---

(١) صاحب هذا المتن هو عبد الرحمن الأخضري وهو نظم لكتاب «**تلخيص المفتاح**» للقزويني.

وعد من ألقابه المطابقة تشابه الأطراف والموافقة
والعكس والتسهيم والمشاكلة تزاوج رجوع أو مقابلة
تورية تدعي بإيهام لما أريد معناه البعيد منهما

على أية حال إن المتون نظمًا كانت أو نثرًا ليست محنة قاصرة على البديع وإنما هي محنة شملت العلوم العربية في العصور المتأخرة عندما أخذت العقول بفعل عوامل شتى يرين عليها العقم والجمود.

وبعد فقد عرضنا لنشأة علم البديع وتطوره في العصور المختلفة وعرفنا على ضوء هذا العرض كيف كانت مباحثه في أول الأمر عنصرًا من عناصر البيان العربي، ثم كيف أخذت هذه المباحث في العصور الأولى تتميز وتتحدد معالمها شيئًا فشيئًا حتى صارت علمًا مستقلاً على يد ابن المعتز، وقدامة، وأبي هلال العسكري وابن رشيق وغيرهم، وأخيرًا كيف جاء شعراء البديع والصنعة من أمثال أبي تمام فثغروا في الشعر ثغرة نفذ منها بالإضافة إليهم أصحاب البديع والبديعيات والمتون وراحوا جميعًا ينظرون إلى البديع على أنه غاية لا وسيلة يستعان بها على تذوق الأساليب البيانية والارتقاء بها، وبذلك أساءوا من حيث أرادوا الإحسان.

وإذا كان الشعراء والأدباء في العصور المتأخرة قد أسرفوا في استعمال البديع وصارت لهم فيه مدارس، وإذا كان علماء المعاني قد توسعوا في مفهومه حتى شمل الصور البيانية وكثيرًا من صور المعاني، وحتى أضافوا إليه ما ليس منه، فخلطوا بذلك بديعًا مزيفًا بالبديع الحقيقي- فإن ذلك كله لا يطعن في قيمة البديع بمقدار ما يدل على سوء فهمهم وقصورهم وجمودهم.

ولعل في دراستنا لبعض فنون البديع ما يرجع بهذا العلم إلى صوره الجميلة عند ابن المعتز وقدامة وأبي هلال وأضرابهم، وما يرد إليه اعتباره كقيمة جمالية في الأدب.

* * *